الأهرام

المصدر: الوطن السعودى

التاريخ : ٢٠ مايو ٢٠٠٤

في شأن الذي جرى في سجن أبو غريب!

تعلمت أن السجن يعرف في العصر المملوكي بالمقشرة من واحدة من المجموعات القصصية للأستاذ جمال الغيطاني، وأظنها كانت ''أوراق شاب عاش من ألف عام''. وكان الاسم فيما أظن يعني أن أحوال المعيشة والتعذيب في السجون تؤدي إلى تقشير جلد الإنسان، ولم يكن ذلك أبدا من الناحية البدنية فقط، وإنما أيضا من الناحية النفسية أيضا عندما تنكشف الروح الإنسانية عن الهوان والضعف والسقوط في أدنى درجات الحيوانية حينما لا يبقى هم سوى البقاء . وكان هذا الجانب النفسي هو ما تعرفت عليه في أقوى صوره في رواية ''الجولاج'' لجولجنستين الروسي والتي كانت واحدة من أسباب فوزه بجائزة نوبل للأدب، وأثناء قراءتها فإن حالة العذاب النفسي والبدني تنتقل بكاملها إلى القارئ. ومع ذلك فإن ''المقشرة'' و ''الجولاج'' كان كلاهما ينتمي إما إلى عصور مضت لم تكن ''حقوق الإنسان'' قد وصلت إلى حالتها من المعرفة والتقدم التي نعرفها الآن، أو إلى نظم سياسية شمولية سحقت الإنسان بأدوات شتى كان السجن مجرد واحدة من أدواتها .

ولكن ما انكشف في سجن ''أبو غريب'' في العراق، وما قام به الجنود الأمريكيون إزاء السجناء العراقيين، حملنا إلى ما هو أخطر، وهو أن الجريمة يمكن حدوثها في الدول الديموقراطية، وبدرجة من القذارة والانحطاط لا تختلف كثيرا عما جرى في التاريخ القديم، أو ما جرى في الدول الشمولية. وربما سوف يكون من السهل على كثير من الشموليين من القوميين والإسلاميين في بلادنا أن يأخذوا ما جرى إلى نتيجتين خاطئتين تماما: الأولى أن الرؤوس في النظم السياسية تتساوى طالما أن تعذيب وامتهان الإنسان يجري في كل منها؛ والثانية أن ما عرفناه من تعذيب في النظم الصدامية والطالبانية وغيرها كان من الأمور المبررة بسبب التهديدات التي كانت هذه النظم واقعة تحتها.

هذه الدروس ليست مقبولة إطلاقا من قبل الليبرالي العربي، وهناك دروس أخرى يجب تعلمها، يقع في مقدمتها أن احترام حقوق الإنسان ليس مجموعة من المبادئ التي يتشدق بها البشر للدلالة على رقيهم وتقدمهم، وإنما هو عملية مستمرة من التنشئة والتعليم والتدريب، بحيث يرتفع الناس على نوازعهم الانتقامية والسادية التي تجذب الأفراد من عالم الإنسان إلى عالم الحيوان . فالصور التي ظهرت عما جرى في مقشرة '' أبو غريب '' لا توضح حالة الامتهان والتعذيب والقهر التي تعرض لها عراقيون فقط، ولكنها أيضا تكشف عن حالة سجانيهم وهم في حالة من الحيوانية النقية التي لا تحدث إلا عندما يتم الفصل الكامل ما بين السجان وموضوع سجنه بحيث لا ينظر إليه إطلاقا كبشر، وإنما كحالة أدنى من البشرية . ولا نحتاج إلى كثير من الذكاء لكي نعرف أن الجنود الأمريكيين قد تعرضوا إلى حالة من التدريب والتنشئة على أن العرب الذين سوف يقبضون عليهم ينتمون إلى حالة أدنى من الحالة البشرية التي تستوجب احترام حقوق الإنسان.

> **النشر لم يكن هدفه فقط تحقيق " خبطة " صحفية، وإنما التأثير في العملية السياسية كلها من أول مؤسسة الرئاسة الأمريكية التي خرجت في هلع تعبر عن أسفها لما حدث، بل وأيضا تبدأ في مراجعة كل الأوضاع التي أدت إليه...**

من هنا فإن الدرس الذي يجب أن تتعلمه أمريكا من هذه المأساة ليس فقط فضيلة التواضع فيما يتعلق بقيمها السائدة بين مواطنيها وجنودها، وإنما أيضا أن الحملة الراهنة على العرب والمسلمين بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر يمكنها أن تفرز مثل هذه الشخصيات السادية . وهو درس آخر لكل الليبراليين في العالم وهو أن قيم التسامح واحترام الآخر، والذود عن حقوق الإنسان لم تستقر بعد حتى في أكثر الدول ديموقراطية في العالم، وأنها لا بد أن تروى مثل النبات وترعى مثل الأطفال طوال الوقت . ولا يجب أن ننسى أن ما جرى في العراق لم يأت فقط من قبل القوات الأمريكية، وإنما أيضا حدث من قبل القوات البريطانية،

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

عبد المنعم سعيد*

مما يكشف عن حالة من الجهل والشحن البدائي للعقول والأعصاب باتت تسيطر على العالم الغربي كله.

ولكن هناك درساً آخر على العرب أن يتعلموه، وهو أن النظام الديموقراطي قادر على كشف أخطائه والتعامل معها، فلم يقم الإعلام المرئي والمكتوب بكشف المستور فقط، بل إنه رفض طلبا للمؤسسة العسكرية من أجل تأجيل نشر الصور لمدة أسبوعين فقط لأسباب تخص "الأمن القومي الأمريكي". وبعد ذلك فإن النشر لم يكن هدفه فقط تحقيق "خبطة" صحفية، وإنما التأثير في العملية السياسية كلها من أول مؤسسة الرئاسة الأمريكية التي خرجت في هلع تعبر عن أسفها لما حدث، بل وأيضا تبدأ في مراجعة كل الأوضاع التي أدت إليه. ويتحرك الكونجرس لكي يقيم تحقيقا سياسيا في الموضوع يقف فيه وزير الدفاع – وزير الدفاع ولا أحد غيره – كالفأر المذعور معلنا تحمله للمسؤولية. ولا تنتهي القصة عند هذا الحد وإنما تمتد إلى تحقيقات جنائية، وتحقيقات شعبية، للبحث في أسباب ما جرى والتعرف على كيفية معالجة ما فيه من قصور مادي أو معنوي.

ولا أظن أن القصة سوف تنتهي عند هذا الحد، فمن المرجح ليس فقط أن رؤوسا سوف يطاح بها بسبب ما جرى، وإنما أيضا سوف تبدأ مراكز البحوث السياسية والنفسية في التعامل مع القضية. هذا درس كبير نحتاج في عالمنا العربي إلى أن نتعلمه ونتمعن فيه، وسبق أن عرف عالمنا العربي هذه المستويات من التعذيب والامتهان والقتل وتشويه الأبدان إلا أن خروج ذلك إلى العالم بالطريقة التي خرج بها من الولايات المتحدة وبريطانيا لم يحدث أبدا في الصحف العربية وكان علينا دوما انتظار سقوط النظام حتى نعرف أسرار ما جرى فيه . إن ذلك يحتاج إلى مراجعة، ولا شك أن إنشاء المنظمة العربية لحقوق الإنسان في منتصف الثمانينيات كان خطوة إلى الأمام، ولكنها لا تزال في بداية الطريق تماما . ولعل أبلغ دلالة على ذلك التعليقات العربية العديدة التي أظهرت الأمريكيين وكأنهم سقطوا من حالق أخلاقي كان يخصهم ولا يخصنا، وربما كانت هذه هي بداية الكارثة في بلادنا!.

---

* كاتب مصري

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية